Hespéris-Tamuda LV (1) (2020): 483-489

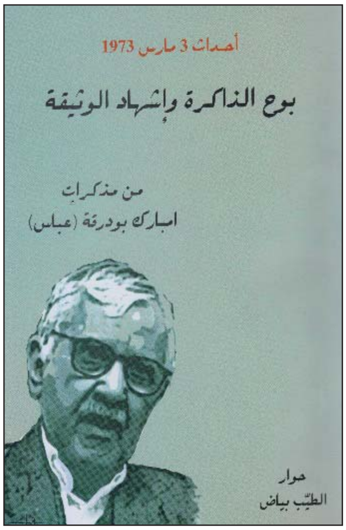

Mbārek Būdarqa (’Abbās).- *“Ahdāth 3 māris 1973,” Bawḥ ad-dhākira wa‘ishād al-wathīqa. Min moudakkirāt Mbārek Būdarqa. Ḥiwār, aṭ-Ṭayab Bayāḍ,* Vol. 1, (ad-dār al-baydā‘: dār an-nashr al-maghribiyya, 2020), 414 p.

مبارك بودرقة، (عباس).- أحداث 3 مارس 1973، بوح الذاكرة وإشهاد الوثيقة، حوار الطيب بياض، الكتاب الأول (الدار البيضاء: دار النشر المغربية 2020)، 414 ص.

تساءل المؤرخ الفرنسي فيرنان بروديل، في درسه الافتتاحي لكرسي "التاريخ والحضارة الحديثة" بالكوليج دوفرانس، يوم الجمعة فاتح دجنبر 1950: "هل يصنع الإنسان التاريخ؟" وكان جوابه: "لا، بل التاريخ هو الذي يصنع الإنسان وينحت مصيره،" وأنه بين "الزمن السريع (المتسارع) للأحداث، والزمن الممتد لحلقاتها" فإنه يفضل دوما الاشتغال على "الزمن البطء والكسول للحضارات" (**بروديل والتاريخ** لصاحبه جاك ريفيل). وهكذا، فإن التاريخ عند رائد مدرسة "الحوليات،" هو الذي يصنع الإنسان، من خلال تفاعله ضمن "الزمن البطء للحضارات (المعاني)" مع الزمن الممتد لحلقات الأحداث المرتبطة به كإنسان، ضمن سياق تاريخي ومجتمعي وحضاري. وبهذا المعنى فإن الإنسان، حين يصنع "حدثه" الخاص في التاريخ، فإنه بالضرورة إنما يضيف جزء من الفعل (الأحداث) على صيرورة قائمة له معها دوما شكل علاقة تفاعلية. فهي من حيث إنها تصنعه، بقصتها وأحداثها ووقائعها، إنما تنحت اختياره لـ "الموقف الخاص" به ضمن صيرورة بطيئة ممتدة كحلقات مترابطة في الزمن أنتجها بنو جنسه في صيرورة الحياة. وبالتالي، فإن النظر إلى "الواقعة التاريخية" كحدث، لا يمكن أن يستقيم فيها المعنى بدون ربطها بصيرورة وقائع سابقة وأخرى لاحقة، متعددة الدوائر بين الفردي والجماعي، بين التاريخي والجغرافي، بين المؤسساتي التنظيمي ومحاولة الاجتهاد للتغيير.

إن الذي فرض علينا استعادة هذه الأسئلة، هو صدور كتاب توثيقي، هام من الناحية التاريخية، حول حدث محدد في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر (مغرب الاستقلال)، موسوم في الأدبيات التاريخية المغربية بـ "أحداث 3 مارس 1973" أو "أحداث مولاي

بوعزة." وقد صدر عن دار النشر المغربية (الطبعة الأولى، فبراير 2020، في 414 صفحة من القطع الكبير)، لأحد الشهود المشاركين في تلك الأحداث، هو الفاعل السياسي التقدمي (ضمن الحركة الاتحادية التقدمية والوطنية المغربية) والفاعل الحقوقي (العضو السابق في هيئة الإنصاف والمصالحة بالمغرب)، الأستاذ المحامي مبارك بودرقة الشهير بلقبه الحركي "عباس."

تميز الكتاب باستناده إلى منهجية توثيقية، تعتمد مبدأ المحاورة بين مؤرخ وباحث جامعي، هو الأستاذ الطيب بياض المنتمي إلى شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق بالدار البيضاء، وبين فاعل سياسي شارك في تلك الأحداث. تلك المحاورة التفاعلية التي سعت إلى المزاوجة بين "بوح الذاكرة" و "إشهاد الوثيقة،" ولهذا السبب كان عنوان الكتاب هو بالتحديد **أحداث 3 مارس – بوح الذاكرة وإشهاد الوثيقة.** مما يعني أن المحاولة التأريخية الجريئة تلك، بالمعنى العلمي للكلمة، إنما تمتلك قوتها من عملها على مساءلة الذاكرة الشفهية انطلاقا من أرضية تسمح بها فقط "الوثيقة التاريخية." حيث يكون البناء المعرفي بناء تفسيريا للوقائع والأحداث انطلاقا من ما تمنحه قوة الوثيقة الدامغة. وهذا ما يمنح لوثيقة تاريخية مماثلة أن ترتقي إلى مرتبة "الشهادة الموثوقة" حول حدث في التاريخ اسمه "أحداث 3 مارس 1973."

تأسيسا على مقولة بروديل، المشار إليها أعلاه، لا يمكن تمثل الحقيقة التاريخية للحدث دون ربطه بالسلسة التاريخية التي أنتجته، بل و "صنعته." ويتعلق الأمر بسلسة تبقى متداخلة المقدمات والنتائج، متعددة المسارب والمداخل، من حيث إن أحداثها مغربية صرفة، وأنها في الآن ذاته متعالقة مع وقائع فوق مغربية، عربية، متوسطية وعالمية. ويسمح لنا التحليل هنا باستصدار خلاصة مركزية، هي أن تلك الواقعة التاريخية، إنما هي جزء من صيرورة تحولات مغربية متراكمة منذ ما أصفه دوما بـ "صدمة الاستعمار" التي ليست حادثة اعتباطية في التاريخ المغربي والمغاربي والعربي، بقدر ما هي تطور طبيعي لصيرورات أخرى عالمية مرتبطة بالتطور التراكمي للرأسمال ولنظام السوق بالعالم منذ القرن الثامن عشر. فقد شكلت "صدمة الاستعمار" التدشين المادي لميلاد محاولات الإصلاح مغربيا، كما أنتجها المجتمع (الفرد) المغربي منذ العقد الثاني من القرن العشرين، وليس فقط النخبة المغربية. ذلك أن محاولات الإصلاح التي تبنتها "النخبة" بالمغرب (عبر بنيات تدبيرية من داخل الدولة)، قد كانت سابقة على التاريخ الفعلي لـ

"صدمة الاستعمار" سنة 1912، منذ حملة نابليون بونابارت على مصر وفلسطين سنة 1798، ثم احتلال الشواطئ والمدن الجزائرية المتوسطية من قبل فرنسا سنة 1830، بما أنتجه من تفاعلات المغرب مع ذلك الاحتلال الذي انتهى إلى هزيمة الجيش المغربي أمام الجيش الفرنسي في معركة إيسلي يوم 14 غشت 1844.

وبالتالي، فإن "صدمة الاستعمار" قد أنتجت نخبا مغربية جديدة، ووعيا جديدا بالذات لدى المغاربة، قدم جيل "الفكرة الوطنية" الذي بلوره التنظيم السياسي الموسوم بـ "الحركة الوطنية" – بتعدد أشكال تنظيمه الحزبية والنقابية والإعلامية والشبابية والرياضية –، المثال الواضح والكبير لها. ولقد تشعب الاجتهاد الفكري والسياسي والتنظيمي بين الفاعلين ضمن جيل "الفكرة الوطنية،" بين اتجاهين كبيرين وازنين، واحد يقول بـ "إصلاح الدولة من خلال إصلاح المجتمع،" وآخر يقول بـ "إصلاح المجتمع من خلال إصلاح الدولة." أي أن الأول يرى الإصلاح صاعدا من القاعدة المجتمعية والجماهيرية، فيما الثاني يرى الإصلاح نازلا من الدولة ذات الشرعية التاريخية والشعبية.

لابد هنا من تسجيل معطى تاريخي هام، عنوانا على نوع من "الخصوصية المغربية" ضمن فضائها العربي والإسلامي والإفريقي، هو أن جيل "لفكرة الوطنية،" منذ نهاية الثلاثينات (أساسا منذ 1937)، قد تبلور تشكله من خلال ثنائية تشاركية بين "نخبة المجتمع" و "نخبة الدولة،" أي بين الفاعل السياسي المجتمعي وبين الفاعل السياسي في الدولة. وبصيغة أكثر دقة بين "الحزبي والنقابي والجمعوي" الوطني، وبين "العرش والقصر" المكتسب للشرعية الوطنية بعد الشرعية التاريخية والسياسية، الذي بلور الشعار التاريخي لما وصف بـ "ثورة الملك والشعب" في أربعينات وخمسينات القرن الماضي.

إن التنازع بين الرؤيتين تلك (إصلاح الدولة من خلال المجتمع/ إصلاح المجتمع من خلال الدولة)، هو الذي أنتج أحداثا في الواقع السياسي لإعادة بنينة المغرب تنظيميا وتدبيريا، بمنطق نظام السوق وما بعد الاستعمار، شكلت "حلقات ممتدة بطيئة" ضمن "الزمن المتسارع للوقائع" بالمعنى الذي حدده بروديل في درسه الافتتاحي بالكوليج دوفرانس سنة 1950. وإن "واقعة 3 مارس 1973" ليست إلا فيضا من تلك الصيرورة من "الحلقات" المتصارعة بين الرؤيتين المغربيتين ضمن أطراف جيل "الحركة الوطنية،" الذي أنتجته "صدمة الاستعمار."

وإذا كان المنجز التاريخي لمؤلف مثل كتاب **بوح الذاكرة وإشهاد الوثيقة**، لتفسير الوقائع المغربية في القرن العشرين، ضمن تلك الصيرورة المتفاعلة، فإنه لا يمكن في هذه الورقة سوى التوقف عند عنوانين بارزين منها، نراهما يمتلكان قوة دلالية في أحداث ما بعد "3 مارس 1973." يتعلق الأول بـ "سؤال الذاكرة" كمرجع للاستفادة من حسن قراءة التاريخ والوقائع، بغاية صناعة الفرد المغربي الجديد (الإنسان بالمعنى المقصود عند بروديل). بينما يتعلق الثاني بالأدلة المعلن عنها، والتي تم كشفها حول حدث لاحق مهم تاريخيا أيضا، لا تزال تفاعلاته قائمة في الحياة اليومية للمغرب والمغاربة والمغاربيين والإفريقيين إلى اليوم، ويشكل موضوع منازعة ومزايدة سياسية بين قوى دولية وازنة، هو ملف "الصحراء الغربية للمغرب." لأن موضوع "الذاكرة" حيوي جدا بمغرب اليوم، وموضوع "استكمال استرجاع الأراضي المحتلة من قبل الاستعمار الأوروبي (الإسباني)" من قبل المغاربة حيوي جدا ولا يزال آنيا. ومن هنا تركيزنا عليهما في هذه الورقة.

بخصوص سؤال "الذاكرة،" ليس هناك أعمق من ما فسر به الفاعل السياسي والحقوقي، صاحب الكتاب، مبارك بودرقة (عباس)، دافعه للكتابة والتدوين، وخلفيات احتفاظه على وثائق تاريخية حاسمة مرتبطة بأحداث "3 مارس 1973،" إذ يؤكد أنه أخذ وقتا طويلا قبل الإقدام على إصدار مؤلف يتناول تلك الوقائع والأحداث، وقد مضت عليها حوالي سبعة وأربعون سنة، وصدرت في شأنها عدة كتب ودراسات، يبقى من بين أهمها كتاب **أبطال بلا مجد** للمهدي بنونة، ابن القائد المنفذ لتلك الأحداث الراحل محمود بنونة. معتبرا أن مما شجعه أكثر تلك الوقفات الأخرى التي كانت له مع ذاكرات متعددة في السنوات الأخيرة، وما تركته من أصداء، جعلته يجدد علاقته بتلك الأحداث، غير ما مرة وعلى أكثر من مستوى، مما دفعه إلى حسم أمره، بتخصيص كتاب لها. ومن بين تلك الذاكرات يذكر كتاب **يموت الحلم ولا يموت الحالم**، الصادر سنة 2016، الواقع في خمسة أجزاء، والذي خصص للمقالات الصحفية الشهيرة بعنوان "رسالة باريس،" للصحافي الفقيد باهي محمد حرمة. ثم الكتاب التوثيقي الآخر الهام جدا والجريئ: **كذلك كان**، الخاص بتجربة هيئة الإنصاف والمصالحة بالمغرب، والذي وضعه بودرقة بصفة مشتركة مع المحامي والأستاذ أحمد شوقي بنيوب سنة 2017. وأخيرا إصدار كتاب من ثلاثة أجزاء ضم جزء من ذاكرة الأستاذ والسياسي عبد الرحمن اليوسفي تحت عنوان **أحاديث في ما جرى**، في ربيع عام 2018.

وتعتبر أحداث 3 مارس 1973، عمليا، آخر حركة مسلحة شهدها المغرب منذ حصوله على الاستقلال، متوجة مسار مرحلة، عرف فيها المغرب أحداثا عنيفة، متلاحقة منذ السنة الأولى لاستعادة المغرب سيادته من الاستعمارين الفرنسي والإسباني. وأثرت بتداعياتها الأليمة داخليا، مخلفة وراءها المئات من الضحايا، من كل الفئات، نساء ورجالا وأطفالا، في مناطق مختلفة، خاصة وأنها اندلعت مباشرة بعد محاولتين انقلابيتين فاشلتين ضد الملك الراحل الحسن الثاني، خلال سنتي 1971 و 1972.

ويحاول كتاب **بوح الذاكرة وإشهاد الوثيقة** رصد الأحداث، من خلال نشر مجموعة من الوثائق، التي تسند وتعضد شهادات كثيرة استجمعها بودرقة من عديد من الشهود الذين واكبوا ما جرى، من بينهم الفقيد عبد الفتاح سباطة، الذي قضى الأيام الأخيرة مع محمود بنونة، قائد المجموعة قبل دخوله إلى المغرب. ومن المعلوم، أن حجم هذه الورقة لا يسمح بالعودة إلى تفاصيل هذه الأحداث المعروفة في خطوطها العريضة، ويمكن العودة إلى تفاصيلها سواء في هذا الكتاب أو في غيره.

وما يهمنا التركيز عليه في هذه المناسبة، أننا بإزاء تأويل لسؤال "الذاكرة"، تفسيري، مقاصده مستقبلية. أي إنه نوع من الإسهام في صناعة الإنسان المغربي من خلال وقائع التاريخ، من منطلق الحرص على تقديم خلاصة التجربة حتى تكون درسا للحاضر والمستقبل. ومن هنا أهمية موضوع "الذاكرة" التي تشكل واحدة من أهم اهتمامات الفرد المغربي اليوم، من موقع المواطنة. المواطنة بالمعنى السياسي التراكمي المتحقق في واقع الفرد المغربي كنتيجة لتفاعل أجياله مع وقائع التاريخ.

فيما تقدم تفاصيل "الوثيقة التاريخية" الأخرى المتعلقة بملف "أحداث الصحراء الغربية للمغرب،" إضاءة أخرى حاسمة من حيث قيمتها كدليل مادي قطعي. وذلك بحكم أنها مرتبطة بواحد من أكبر الفاعلين ممن أثروا في تطور تلك الأحداث، والمتمثل في شخص مؤسس "جبهة البوليزاريو" الراحل مصطفى الوالي السيد.

إن المدخل المركزي لقوة تلك الوثيقة التاريخية كامن في ذلك الإقرار التحليلي للفاعل السياسي الشاب الصحراوي المغربي ذاك، الذي يؤكد فيه مغربية الصحراء الغربية، حين كتب يقول:

"(...) وكما أن تعاقب الدول والتنازع على السلطات وتناحر القبائل، أدت إلى ازدياد الهجرة لهذه المنطقة المحايدة الأمنة واللجوء إليها من كل مغلوب (يقصد

الصحراء). بل وفي كثير من الأحيان الاعتصام بها من طرف الثائرين الذين يحضرون للانقضاض على أعدائهم. ونتيجة لهذه الهجرة المتعاقبة صوب الصحراء والمعاكسة أحيانا منها إلى المغرب، فقد كانت المنطقة مرتبطة ارتباطا وثيقا في غالب الأحيان بالسلطة القائمة في المغرب، وكثيرا ما كانت تمارس سلطات مركزية من قبل هذه الحكومات على سكان المنطقة، خصوصا في حالات الحروب. فكانت كثير منها تجند سكان المنطقة لنصرتها. ويمكن القول إن المنطقة كانت إقليما مغربيا كسائر الأقاليم المغربية الأخرى."

هذا الكلام، الذي يجزم في أمر علاقة الصحراء بالمغرب، والذي يؤكد على أنها كانت (وظلت) إقليما مغربيا كسائر الأقاليم المغربية، وأن موجات السعي بين الشمال والجنوب قد ظلت لقرون موجات تواصل واحتماء وتفاعل وتأثير سياسي وتجاري وأمني، للوالي مصطفى السيد مؤسس جبهة البوليزاريو وزعيمها التاريخي، يقوم مقام الحكمة الأصيلة النافذة التي تقول "وشهد شاهد من أهلها." هذا مع ضرورة تسجيل أن كلام الوالي مصطفى السيد (الفصل هذا)، لم يكن تصريحا مناسباتيا في دردشة عابرة، أو في تصريح صحفي قد تحكمه سياقات آنية، بل هو أمر حرص على تدوينه بخط يده، في وثيقة مكتوبة مطولة. أي أنه كلام تم التفكير فيه بروية، وأنه ترجمان لرؤية شمولية للرجل في سنة 1973، حتى بعد التعذيب الذي طاله ورفاقه من الطلبة المغاربة الصحراويين (بعضهم لا يزال على قيد الحياة هنا وهناك)، الذي نفذته السلطات الأمنية المغربية بأمر من الجنرال الراحل محمد أوفقير بمدينة طانطان. بمعنى أن الرجل، من موقعه كزعيم شبابي مسؤول، قد صدر في كتابته هذه عن رؤية مفكر فيها وليس عن أهواء ردود الفعل.

إن هذه الوثيقة التاريخية الحاسمة والنادرة، لتعتبر بهذا المعنى واحدة من أهم الوثائق التاريخية التي جاءت في كتاب **بوح الذاكرة وإشهاد الوثيقة**. إن شهادة الوالي مصطفى السيد المنشورة بخط يده، قد سلمها ذلك الشاب المغربي الصحراوي الثائر، المسكون بهم تحرير الصحراء من الاستعمار الإسباني، هو الذي درس بكلية الحقوق بالرباط ومنها حاز الإجازة في الحقوق، إلى مبارك بودرقة بالعاصمة الجزائر في ربيع سنة 1973، حيث كان يلتقيه هناك باستمرار.

تأسيسا على ذلك كله، يمتلك كتاب بودرقة فعليا قوة "الوثيقة التاريخية،" لأنه يقدم ذخيرة من الوثائق الحاسمة المفسرة لكثير من الأحداث، خاصة ما يرتبط منها بما عرف في التاريخ المغربي الحديث بـ"أحداث مولاي بوعزة – 3 مارس 1973،" أو تلك

المرتبطة منها بشكل ميلاد حركة شبابية تحررية تسعى لتحرير إقليم الصحراء الغربية للمغرب من الاستعمار الإسباني انطلاقا من يقين مغربيتهم وأنهم امتداد لحركة تحررية مغربية، بالتأطير الإيديولوجي سياسيا للمرحلة الذي هو التيار اليساري الثوري. ومن خلال 72 وثيقة (وعدد ناذر آخر من الصور)، تعتبر المستندات المذكورة لوحدها مادة غنية للباحثين في مجال التاريخ الراهن للمغرب المعاصر.

إن تجربة الحياة، التي يقدم تفاصيل هامة عن جزء من أحداث سياسية صنعت قدر المغاربة منذ صدمة الاستعمار، وقعت في ما بين مارس 1973 و نونبر 1975، فاعل سياسي ميداني مؤثر من قيمة الأستاذ مبارك بودرقة (عباس)، إنما تقدم لنا الدليل الملموس على صدقية مقولة المؤرخ بروديل أن ليس "الإنسان هو الذي يصنع التاريخ" بل إن التاريخ هو الذي يصنع الإنسان وينحت مصيره.

لحسن العسبي
باحث وكاتب، الرباط